(١)

رعاية المسنين وحماية حقوقهم

الحمد لله رب العالمين ، القائل في كتابه العزيز: { وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا }، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ علَيه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ، **وبعد**:

فقد خلق الله تعالى الإنسان في أحسن تقويم ، وكرمه وفضله على سائر مخلوقاته، قال تعالى: {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىءَادَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً}.

ولما كان الإسلام دين الإنسانية والرحمة بأرقى معانيها ، جاء ليعلي قيمة الإنسان ويحفظ كرامته ، ويرتقي به جسدًا وروحًا ، ويلبي كل متطلباته وفق منهج ونظام محكم دقيق، يحث على البر ، وينهى عن الإثم ، ويأمر بالرحمة ، ويعلي من قدر الإنسانية ، فالإنسانية ليست مجرد كلمة أو شعار بقدر ما هي مسئولية وواجب يرعى حق الضعيف قبل القوي ، والصغير قبل الكبير ، والمريض قبل الصحيح ، وتتجلى مظاهر هذه الإنسانية في رعاية المسنين ، وكفالة حقوقهم ، وقضاء حوائجهم ، والسعي على مصالحهم ؛ وذلك حرصًا على استقرار حياتهم وإدخال السرور عليهم ، وإعطاء كلّ ذي حق حقه ، وتقوية لأواصر الودّ والمحبة والترابط بين الناس جميعًا ، فإن إكرام الكبير ، ورعاية المسنين وحماية حقوقهم جزء لا يتجزأ من حضارتنا الإنسانية ، فالمجتمع الذي لا يوقر الكبير ، ولا يرحم المسنين مجتمع لا خير فيه ولا

حضارة له .

ولم لا ؟ وهم جزء أصيل من نسيج المجتمع ، أدوا ما عليهم فترة شبابهم ، فهم الأكثر حكمة وخبرة في الحياة ، وهم الأمان لغيرهم ، وبهم يتحقق نصر الله تعالى، ويزداد الرزق ، حيث قال (صلى الله عليه وسلم) : (هَلْ تُنْصَرُونَ وَتُرْزَقُونَ إِلَّا بِضُعَفَائِكُمْ) أي: ببركتهم ، وبدعائهم ، وصدق نياتهم .

ولقد حثَّ النبي الكريم (صلى الله عليه وسلم) على احترام المسنين وإكرامهم، ومعرفة قدرهم ومكانتهم، وربط بين ذلك وبين إجلال الله (عزّ وجلّ)، فقال (صلى الله عليه وسلم): (إِنَّ مِنْ إِجْلَالِ اللَّهِ إِكْرَامَ ذِي الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ ، وَحَامِلِ الْقُرْآنِ غَيْرِ الْغَالِي فِيهِ وَالْجَافِي عَنْهُ ، وَإِكْرَامَ ذِي السُّلْطَانِ الْمُقْسِطِ)، فقدم النبي (صلى الله عليه وسلم) ذكر ذي الشيبة على حامل القرآن والحاكم العادل مع علو منزلتهما؛ إكرامًا لذي الشيبة، وتقديرًا له ، حتى إن النبي (صلى الله عليه وسلم) نفى كمال الإيمان عمن أنكر حق ذي الشيبة واستخف بهم ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : (لَيْسَ مِنْ أُمَّتِي مَنْ لَمْ يُجِلَّ كَبِيرَنَا ، وَيَرْحَمْ صَغِيرَنَا ، وَيَعْرِفْ لِعَالِمِنَا حَقَّهُ)، وفي الحديث الشريف أيضا : أن شيخًا كبيرًا أراد النبي (صلى الله عليه وسلم) فأبطأ الجالسون في أن يوسعوا له ، فقال (صلى الله عليه وسلم) : (لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا وَيُوَقِّرْ كَبِيرَنَا)، وفي رواية : (وَيَعْرِفْ حَقَّ كَبِيرِنَا)، وفي رواية ثالثة : (وَيَعْرِفْ شَرَفَ كَبِيرِنَا).

ولقد بلغ من اهتمام الشرع الحنيف بالكبير والمسن أن أوصى بمزيد من التخفيف عليهم والتيسير لهم في أداء الطاعات والعبادات رأفة بهم ، فقد أمر الإسلام بتخفيف الصلاة من أجل أصحاب الأعذار وكبار السن ، فقال (صلى الله عليه وسلم) : (إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ لِلنَّاسِ فَلْيُخَفِّفْ ، فَإِن فيهِم الضَّعِيفَ وَالسَّقِيمَ وَالكَبِيرَ)، وفي رواية :

(إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ بِالنَّاسِ فَلْيُخَفِّفْ ، فَإِنَّ فِيهِمُ الضَّعِيفَ، وَالشَّيْخَ الْكَبِيرَ، وَذَا الْحَاجَةِ).

وكذلك رخَّص الإسلام في الصيام لغير القادر منهم في الإفطار مع الفدية ، قال تعالى:{وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ}، والمقصود بالذين يطيقونه : من يتحملون الصوم بمشقة شديدة بالغة ككبار السن، وأصحاب الأعذار ، وفي الحج رُخَّص لهم كذلك في كثير من الأحكام رفعًا للحرج عنهم ، ودفعًا للمشقة ، فهم أكثر فئات المجتمع احتياجًا إلى الاهتمام والرعاية بعد أن أفنوا حياتهم في طاعة الله (عز وجل)، وتربية أبنائهم ، وفي خدمة أوطانهم ومجتمعاتهم.

ومن حقوقهم أيضًا : **حسن معاملتهم، ورعايتهم، جسديا، ونفسيا، وروحيا** بغض النظر عن دينهم ، فهذا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يوم فتح مكة أتاه أبو بكر (رضي الله عنه) بأبيه (أبي قحافة)، فلما رآه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال: (هَلَّا تَرَكْتَ الشَّيْخَ فِي بَيْتِهِ حَتَّى أَكُونَ أَنَا آتِيهِ فِيهِ) ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا رَسُولَ اللهِ ، هُوَ أَحَقُّ أَنْ يَمْشِيَ إِلَيْكَ مِنْ أَنْ تَمْشِيَ أَنْتَ إِلَيْهِ ، قَالَ: فَأَجْلَسَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ ، ثُمَّ مَسَحَ صَدْرَهُ، ثُمَّ قَالَ لَهُ : (أَسْلِمْ) ، فأسلمَ .

وقد ضرب الصحابة (رضوان الله تعالى عليهم) أروع الأمثلة في حسن معاملة المسنين ورعايتهم ، اقتداء بنبيهم (صلى الله عليهم) ، فهذا عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) يرى رجلًا مسنًّا من أهل الكتاب يتكفف الناس ، فأخذ بيده وذهب به إلى منزله، فأحسن إليه وأعطاه ما يسُدُّ حاجته ، ثم أرسل إلى خازن بيت المال فقال له : (انظر هذا وضُرباءه – أي وأمثاله – ، فوالله ما أنصفناه إن أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم) ، وتلا قول الله تعالى : {إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ} .

إن احترام الكبير وحسن معاملته يبرز عظمة الإسلام وسماحته في اهتمامه

بالضعفاء وأصحاب الحاجات ، فالإسلام يدعو إلى التكافل والتراحم ، ويهتم بالفئات الضعيفة التي لا تقوى على مطالب الحياة ، ولقد ربىَّ النبي (صلى الله عليه وسلم) المجتمع المسلم على حب الخير ، وأمر به ، وتقديم يد العون ومساعدة المحتاجين، وكان عمر (رضي الله عنه) وهو أمير المؤمنين يخرج في سواد الليل فرآه طلحة (رضي الله عنه)، فذهب عمر فدخل بيتًا ، ثم دخل بيتًا آخر ، فلما أصبح طلحة ذهب إلى ذلك البيت فإذا بعجوز عمياء مقعدة ، فسألها : (مَا بَالُ هَذَا الرَّجُلِ يَأْتِيكِ؟) ، قالت: إنه يتعاهدني منذ كذا وكذا ، يأتيني بما يصلحني ، ويخرج عني الأذى.

فالإسلام يدعو إلى التكامل والتوازن بين أفراد المجتمع حتى تسوده روح الوئام والسلام ، وتتحقق الألفة والمودة والترابط بين جميع أبنائه .

فما أحوجنا إلى عودة حقيقية وجادة إلى قيمنا الدينية والمجتمعية والإنسانية ، من إكرام الكبير ، وذي الشيبة ، وذوي الاحتياجات الخاصة.

على أن رعاية المسنين وحماية حقوقهم ، تزداد أهمية ومسئولية إذا كان المسن ذا رحم وصلة ، فيكون أولى بالعناية والرعاية، بل إنه يصل إلى حد المسئولية التي يأثم من يقصر في الوفاء بحقها إذا كان المسن أبًا أو أمًا ، حيث يقول الحق سبحانه: {وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا } ، ويقول تعالى : {وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ * وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا

كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} ، ولما جاء أحد الناس يسأل النبيَّ (صلى الله عليه وسلم) في الجهاد ، فقال: يا رسول الله : إني جئت أريد الجهاد معك ، ولقد أتيت وإنَّ والديَّ يبكيان، قال له (صلى الله عليه وسلم) : (فارجع إليهما فأضحكهما كما أبكيتهما) ، وأقبلَ رَجُلٌ إِلَى النَبيِّ (صلى الله عليه وسلم) فَقَالَ: أُبَايِعُكَ عَلَى الهِجْرَةِ وَالجِهَادِ أَبْتَغِي الأَجْرَ مِنَ الله تَعَالَى. قَالَ: (فَهَلْ لَكَ مِنْ وَالِدَيْكَ أَحَدٌ حَيٌّ؟ قَالَ: نَعَمْ ، بَلْ كِلاهُمَا. قَالَ: فَتَبْتَغِي الأَجْرَ مِنَ الله تَعَالَى؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فارْجِعْ إِلَى وَالِدَيْكَ ، فَأَحْسِنْ صُحْبَتَهُمَا)، وفي رواية: (جَاءَ رَجُلٌ فَاسْتَأذَنَهُ في الجِهَادِ، فقَالَ: أحَيٌّ وَالِداكَ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَفيهِمَا فَجَاهِدْ) .

ومن ثم فعلينا أن نمتثل منهج القرآن الكريم ، وتوجيهات النبي العظيم (صلى الله عليه وسلم) في رعاية المسنين والضعفاء، والرحمة بهم، والعمل على حماية حقوقهم.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين ، سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم)، وعلى آله وصحبه أجمعين.

إخوة الإسلام:

إذا كان الإسلام قد حثَّ على رعاية المسنين عامَّة وحماية حقوقهم ، فإنه أكد هذه الرعاية للوالدين وخاصة في سن الشيخوخة ، وجعل ذلك ضربًا من الجهاد في سبيل الله (عز وجل)، فعن كعب بن عجرة (رضي الله عنه) أن رجلًا مرَّ على النبي (صلى الله عليه وسلم) فرأى الصحابةُ (رضي الله عنهم) من جَلَدِهِ ونَشَاطِهِ مَا أَعْجَبَهُمْ،

فقالوا: يا رسول الله ، لو كان هذا في سبيل الله؟!، فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): (إِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى وَلَدِهِ صِغَارًا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَإِنْ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى أَبَوَيْن شَيْخَيْنِ كَبِيرَيْنِ فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَإِنْ كَانَ يَسْعَى عَلَى نَفْسِهِ يَعِفُّها فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ رِيَاءً وتَفَاخُرًا فَهُوَ فِي سَبِيلِ الشَّيْطَانِ).

ولا شك أن رعاية الأبوين في الشيخوخة والكبر والقيام على أمرهما **ينجي من الأزمات**، **ويفرج الكربات**، **ويقيل العثرات في الدنيا والآخرة** ، ففي حديث الثلاثة الذين انحدرت عليهم الصخرة من أعلى الجبل فسدت عليهم باب الغار؛ توسل كل واحد منهم بعمل أخلص فيه لله (عزّ وجلّ)؛ لعله يرفع عنهم ما هم فيه، فكان من توسل الأول ودعائه: (اللهُمَّ إِنَّهُ كَانَ لِي وَالِدَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ، وَامْرَأَتِي، وَلِي صِبْيَةٌ صِغَارٌ أَرْعَى عَلَيْهِمْ، فَإِذَا أَرَحْتُ عَلَيْهِمْ حَلَبْتُ، فَبَدَأْتُ بِوَالِدَيَّ، فَسَقَيْتُهُمَا قَبْلَ بَنِيَّ، وَأَنَّهُ نَأَى بِي ذَاتَ يَوْمٍ الشَّجَرُ، فَلَمْ آتِ حَتَّى أَمْسَيْتُ، فَوَجَدْتُهُمَا قَدْ نَامَا، فَحَلَبْتُ كَمَا كُنْتُ أَحْلُبُ ، فَجِئْتُ بِالْحِلَابِ، فَقُمْتُ عِنْدَ رُءُوسِهِمَا أَكْرَهُ أَنْ أُوقِظَهُمَا مِنْ نَوْمِهِمَا، وَأَكْرَهُ أَنْ أَسْقِيَ الصِّبْيَةَ قَبْلَهُمَا ، وَالصِّبْيَةُ يَتَضَاغَوْنَ عِنْدَ قَدَمَيَّ، فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ دَأْبِي وَدَأْبَهُمْ حَتَّى طَلَعَ الْفَجْرُ ، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَافْرُجْ لَنَا مِنْهَا فُرْجَةً نَرَى مِنْهَا السَّمَاءَ، فَفَرَّجَ اللهُ مِنْهَا فُرْجَةً ، فَرَأَوْا مِنْهَا السَّمَاءَ...).

وإن من سنة الله تعالى في خلقه أنَّ مَن برَّ والديه برَّهُ أبناؤُه ، ومن عقَّ والديه عقَّه أبناؤُه فالجزاء من جنس العمل ، فقد روي أن رجلا ضاق بوالده المسن فصنع له وعاء خشبيًّا حتى لا تنكسر منه الأطباق لرعشة أصابته في يده ، فسأله أصغر أبنائه لمَ صنعتَ هذا الإناء يا والدي ؟ قال : لنضع فيه الطعام لجدك حتى لا ينكسر ، فقال الولد: نعم ، حتى نصنع لك فيه الطعام عندما تكون مثل جَدِّي.

إن الاهتمام بالوالدين عند الكبر والعناية بهما هو أقصر الطرق إلى الجنة، فعن أبي هريرة (رضي الله عنه) أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال: (رَغِمَ أَنْفُ، ثُمَّ رَغِمَ أَنْفُ، ثُمَّ رَغِمَ أَنْفُ). قيل: من؟ يا رسول الله قال: (مَنْ أَدْرَكَ أَبَوَيْهِ عِنْدَ الْكِبَرِ، أَحَدَهُمَا أَوْ كِلَيْهِمَا فَلَمْ يَدْخُلِ الْجَنَّةَ). وعن طَيْسَلَة بْن مَيَّاسٍ، قال لي ابن عمر(رضي الله عنهما) : (أَتَفْرَقُ النَّارَ ، وَتُحِبُّ أَنْ تَدْخُلَ الْجَنَّةَ؟). قلت: إي، والله! قال: (أحيٌّ والداك؟). قلت: عندي أمي. قال: (فَوَ اللَّهِ! لَوْ أَلَنْتَ لَهَا الْكَلَامَ ، وَأَطْعَمْتَهَا الطَّعَامَ، لَتَدْخُلَنَّ الْجَنَّةَ مَا اجْتَنَبْتَ الكبائر).

فاللهم اهدنا لأحسن الأخلاق فإنه لا يهدي لأحسنها إلا أنت
واصرف عنا سيئها فإنه لا يصرف عنا سيئها إلا أنت.